سياسة الإسلام التربوية *

الشيخ محمد الغزالى

هل حدة الذكاء وسعة العلم تغنيان عن طيب النفس وشرف الخلق ؟

كلا ، اننا نمقت الذكى الشرير ، ونوجل من معاملته ، ونعتقد أن النفس الضغيرة لا تزيدها المعرفة الكبيرة إلا قدرة على الأذي ، وطاقة علي الإساءة ومن الخطأ أن نحسب الدين معرفة نظرية أو قراءة طويلة . اذا لم يكن الدين كبحا للهوى ، وامتلاكا للطبع فلا خير فيه ولا جدوى منه .....

وقد أكد القرآن الكريم أن تزكية النفس الانسانية هى الغاية من شتى التكاليف ، والتزكية المنشودة هى التربية الصحيحة ، هى تصفية المعدن الانسانى من شوائبه وجعل الغرائز كلها تحت رقابة العقل المؤمن تطغى ولا تجمع .....

والناظر فى الحضارة الحديثة يراها ارتقت كثيرا فى ميادين الكشوف الكونية ، واستغلت المطابع فى نشر ألوف الألوف من الكتب والصحف ، واستغلت الكهرباء فى انشاء دور الاذاعة المختلفة ، وفى تسخير الأقمار الصناعية لمزيد من الاطلاع والتعليم – فهل كان ذلك تقدما أنسانيا حقا ؟

ان الأثرة الفردية والجماعية ضربت مع هذا التقدم وتفاحشت الشهوات والمظالم ، وظهر الفساد فى البر والبحر واتسعت دائرة الالحاد والتدين الجاهل ، مما يجعلنا نقرأ الآية الكريمة « أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون » ؟

انه لابد من عمل يقوم به المرء داخل نفسه حتى تصلح ، عمل مرهق جاد يكسر الرغبة الجامحة ، ويخضع الانسان لوصايا الرحمن « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجنة هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » فان أشكال العبادات لا تصنع ذلك التغيير الحاسم .... اذا لم تمح الصلوات الحسد والحقد من نفسك ، فلا صلاة لك ، السجود الحقيقى ليس انطواء الجسم أمام الله بل هو انقياد القلب لهداياته ووصاياه .

---

* محاضرة افتتاحية ألقيت فى مؤتمر (نحو بناء نظرية تربوية معاصرة) ، عمان (الأردن) ، ٢٤-٢٧ /٧/ ١٩٩٠ نظمه المعهد العالى للفكر الإسلامى مع آخرين .

الخيط المعقد لا ينحل ويسترسل الا بفك عقدة عقدة عقدة ، ولا تفيد فى ذلك تغطية ولا تحلية ، والنفس المعقدة لا تعود لفطرتها ولا تستقيم مع سجيتها الا بعد ذهاب عللها وعودة العافية اليها ..

فاذا كانت العبادات استعانة بالله على بلوغ هذا الهدف ، واذا قبلها الله ، وأعان الضارع فى ساحته فأصلح نفسه ، وأقام عوجه ، فالعبادة صحيحة مقبولة ، والا .... فالوضع لم يتغير . اننى أراقب نفسى وأراقب من حولى فأرى أن بيننا وبين الصلاح الحق بعدا سببه اننا قد نعرف الدواء ولا نحسن التداوى ، ولا نقدر على مطالبه ...

وهناك من يجهل أنه مريض ، ويقاوم من يطلبون له الشفاء ، بل قد زعم أنه هو الطبيب بكل شىء .

فلنعد مرارا إلى فهم الآية الكريمة « ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

لا أستطيع الفصل بين تقوى الله وحسن الخلق ، ربما عاملني شخص ما بلطف ، ونظر الي بوجه طليق ، وهذا شئ أحمده عليه . لكن ما العمل اذا كان هذا الشخص لا يذكر لله عهدا ، ولا يشكر له نعمة ، ولا يدين له بولاء ؟ هل أعد هذا الشخص فاضلا لأنه أحسن معاملتي علي حين أساء معاملة ربه ؟

أعرف أن الحضارة الحديثة اغفلت الجانب الالهي وأسقطته من كل حساب ، لكن هذا المسلك من أوزارها لا من مناقبها ....

الانسان الخير لا ينقسم علي نفسه فيكون طيبا هنا وخبيثا هناك ، بل تسود خلاله صبغة واحدة ووجهة ثابتة ، ... نحن نعد أعداء المجتمع البشري مجرمين لأنهم يعتدون وينحرفون ، والقرآن الكريم يثبت الصفة نفسها علي من يخاصم الله ويلحد في دينه " ومن أظلم ممن ذكر بايات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون " .

وعندما نسمع نصح لقمان لابنه ، نراه يمزج بين حسن معاملة الله وحسن معاملة الناس " يا بني أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وأنه عن المنكر ، وأصبر علي ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور "

انها سفالة بعيدة القرار أن يكفر أمرؤ بالله ويعالن بحربه ثم ينتظر من الناس التقدير لأنه ابتسم لهم بعد ما تجهم لسيده ، ما يقبل ذلك أحد .

ومعني الايمان بالله أن أكون أهلا لمعرفته وجديرا بالانتماء اليه ، ولايصلح لذلك الا

من هذب نفسه ، وصان مسلكه ، انك لا ترشح نفسك لصحبة كبير الا اذا أصلحت هيئتك ، وزكيت سيرتك ، فكيف ينتمي الي الله مسف في أحواله ، مسئ في أعماله ، مريب في خلاله ؟ الواقع أن بعض المنتسبين الي الدين ينفرون منه بما يلاحظ عليهم من انحلال وهبوط .... والتدين الفاسد عدوان مضاعف علي الدين الحق ، وهو جريمة ارتكبتها أمتنا في العصر الأخير .

لابد من جهاد دائم للنفس حتي تبرأ من رذائل الأثرة والهوي والعدوان .. وأي دين يبقي مع بقاء هذه الآفات ؟ يقول الله تعالي : " وأحضرت الأنفس الشح " ولا حرج في دفاع المرء عن مصالحه ، أما ان يخرج من بيته كما يخرج السبع من غابة ، لا هم له الا أن يفترس ويغتال ، فهذه وحشية ، الحيوان لا يفكر الا في نفسه وأولاده ، وبعض الناس ينطلقون في الشوارع لا تملكهم الا هذه الفكرة ، فهم ينتقلون من منحدر الي منحدر ، وبعض آخر مشغول بهدم الآخرين ، والبحث عن عيوبهم ، والتسلي بآلامهم .. ولا أدري لماذا يتخيل بعض الناس أنه لا يبني نفسه الا اذا هدم غيره ؟

وهناك باحثون عن اللذة ، يمدون أعينهم الي المكشوف والمستور من العورات ، وقد حسبوا أن من حقهم إشباع شهواتهم لأن الكبت لا يجوز ، وحبس الرغبة المحرمة من وصايا الأديان البالية !

وهناك متملقون يقبعون تحت أقدام السادة معلنين الطاعة ومنتظرين الأوامر ليمدحوا هذا ويشتموا ذاك . أن فقدان التربية السليمة ، والتدين الحق جعل الدنيا جحيما ، وجعل العلاقات البشرية في الخصيتين .

والحل الفذ أن نعود الي حقيقة الدين ، فنوثق علاقتنا بربنا ، ونحسن الصلاة له والخشوع بين يديه ، ونجعل علاقتنا بالناس محكومة بمعالم التقوي وخشية الله و التأهب للقائه....

ان الدين في الغرب نهج لخدمة الرجل الأبيض ، واستغلال ثروات الأرض ونسيان الدار الآخرة ، وقد لفحتنا هذه النار المندلعة ، فلنعد بالدين الي حقيقته ، ولنجعله ربانية طاهرة ، وأخوة مواسية ، وصالحات بررة " ومن يسلم وجهه الي الله وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقفي ، والي الله عاقبة الأمور ".

هناك أمر أجدني مسوقا اليه وأنا أتأفف لما عرا أمتنا ، وهو أمر قد يبدو علميا ، ولكنه عندي من صميم الأخلاق ، ودعائم التربية ..

يستحيل أن تقوم حضارة اسلامية تخاصم الكون وتجهل مفاتحه ، أو تخاصم الانسان وتجافي فطرته لأن القرآن الكريم يبني الايمان علي فهم الكون ودراسة الأنسان.

ورجال محمد عندما بنوا لكتابهم دولة ، كانوا يسبحون في بحر الحياة ، ويتعاملون بذكاء مع تياراته ومده وجزره ، أو بتعبير الدكتور " لويس عوض " كانوا علمانيين خبراء بالمادة والمجتمع وشئون الحياة كلها ".

سئل الدكتور لويس : هل يحافظ الاسلام حتي يومنا هذا الي دعوته الشاملة ؟

فأجاب : "كلا ، واذا كان الاسلام قديماً قد استطاع التغلب علي بيزنطة فلأنه كان دينا علمانيا أكثر من الدين المسيحي في القرن السابع ، كان دينا معنيا بأمور الحياة ، كما كان معنيا بالغيبيات والروحانيات، علي حين كان نظام بيزنطة روحانيا ، مغرقا في الغيبيات" ..

ثم قال الدكتور :" ويبدو أن ما تحلم به الجماعات الاسلامية هو الاسلام البيزنطي " .

ولست بصدد التعليق الموسع علي كلام لويس عوض ، وأنما يهمني الاشارة الي أن التربية الاسلامية الصحيحة تقوم علي فقه واسع في الحياة والأحياء ، في الأرض والسماء في كل ما يؤثر فينا ونؤثر فيه ، حتي لكان ذلك كله ديننا ودنيانا ، وأولنا وأخرنا .... ثم تسخير ما بلغناه بعد ذلك لارضاء ربنا وكسب آخرتنا ، وفق الآية المعروفة ، " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين " .

يستحيل أن يكون الجهل بالحياة دينا ، أو أن يكون الفشل فيها تقوي ، املك الدنيا بذكاء واقتدار ثم وجهها لاعلاء كلمة الله ، واعزاز الايمان ورفع رايته .

أن من يملك صفرا في شئون الدنيا لن يكون الا صفرا في شئون الآخرة ، وقد رأيت اقواما لا قدم لهم في آفاق المعرفة يريدون الحديث عن الله ودينه ، فاستغربت جرأتهم وقلت " الرحمن فاسأل به خبيرا " .

كيف يعرف الله أو يعرف الناس به جاهل بالعالم وما فيه وبالتاريخ ومباهجه ومآسيه ؟! .

ان القرآن كتاب لا يرتفع الي مستواه رجل عادي ، ومحمد لا يستطيع التآسي به الا انسان في عقله نور وفي قلبه نور . لا يمكن بناء قاعدة للتربية حتي نحدد أولا موقفا من الدنيا ، أنعيش لها أم للدار التي بعدها ؟ أم للأثنتين معا ؟

ان الحضارة الحديثة انطلقت من قاعدة مهدها عصر الأحياء من خمسة قرون ، قاعدة بشرية عقلانية ، تدرس السموات والأرض وما بينهما ، وتستكشف أسرار المادة ، ثم تجعل ثمرات الدرس والكشف لخدمة الانسان .

هل للدين موضع في هذه الدراسات الجادة الدءوب ؟ كلا ، لقد وقعت عداوة دامية خسيسة بين العلم والكنيسة ، جعلت العلماء يعتقدون أن الدين مرادف للجهالة والجمود وان رجاله أوثان حية رديئة ينبغي الخلاص منها ...

فأين الاسلام عندئذ ؟ لقد انتحر المسلمون في الأندلس وقضي عليهم العفن السياسي والترف الاجتماعي ، وانشغال العلماء بقضايا جزئية ومسائل جدلية ، لم يكن الأندلسيون في النصف الثاني من تاريخهم نماذج مقبولة للاسلام ، بل كانوا ينفرون منه ، وفقدوا فقداناً تاما خصائص الدعوة والدعاة .....

وهذا البلاء انتقل من الشرق الاسلامي الي الغرب ، فان فساد السياسة والاقتصاد والعمران تكاثرت جراثيمه ، وتنامت نتائجه حتي قضي التتار علي الخلافة المعتلة ، ثم قضي الصليبيون من بعد علي الدويلات الاسلامية في الأندلس ، والتي كان شغلها الشاغل التنازع علي السلطة والثروة ...

صحيح أن الأتراك رفعوا راية الخلافة ، واستطاعوا في زحف باهر أن يخترقوا شرق أوروبا حتي النمسا ، ولكن الأتراك كانوا قوة عسكرية ، ولم يكونوا فجرا ثقافيا جديدا ، ولو صحبهم جهاز للتربية والتعليم ، والبلاغ المبين لكان لهم في الأقطار المفتوحة شأن آخر ؟؟

انهم رفضوا أن يتعربوا كما رفض العرب أن يؤثروا علي أنفسهم ، وان يتركوا السلطان لغيرهم ، فكان التوسع الاسلامي خاليا من بذور الحضارة الأولي ، ومن أسباب الحياة الصحيحة فسرعان ما أنهار ، وانهار العالم الاسلامي بعده ، وأصبح أثرا بعد عين

أما الأوروبيون ، فبعيدا عن الدين قرروا حرياتهم السياسية ، ووضعوا " الماجناكارتا " بعد قتل الملك المستبد بالدين ، ووضعت لأصحابها نظاما آخر . كانت ثورة تتسم بالبطش وتسرف في الفتك .... ثم جاءت الثورة مصحوبة بسيول من الدماء ، وألوان من الوحشية ، وقد هدمت الكنائس بعد ما فرغت من أهلها ، أما المساجد فقد دفنت أهلها فيها ، ومصاب الاسلام في الاتحاد السوفيتي يحتاج الي دراسات واسعة .

المهم بعد هذه النظرة الخاطفة ان حضارة الغرب من قرون قامت علي الكفر بالله وان كانت قد انتفعت ببعض المخلفات الاسلامية والانسانية في نهوضها .

بيد أن شيئا قد حدث مع بدايات القرن الأخير ، فان الصليبية لعقت جراحها ، وأخذت تقترب من المنتصر تتودد اليه ، وتعرض عونها عليه ، وكذلك فعلت الصهيونية واصطلح الجميع علي اخراج الرسالة الخاتمة ، والاستيلاء علي ميراثها الضخم ، وقد

بدا لكل عين أنه ميراث لا صاحب له ، أو بتعبير اخر لا حارس له .

وشعر أتباع محمد بحرب الابادة تقترب منهم ، ونيات الغدر والفتك تلفح كيانهم .

واستيقظت نوازع الحياة في الأمة المنكوبة ، وشرع المدافعون في ميادين العلم والتربية والاقتصاد والعمران يتنادون لانقاذ الرسالة التي أحدق بها العدو من ناحية .

ان البلاء شديد ، ولكن طريق الخلاص منه واضح ، وبعد ما نثوب الي رشدنا ونستمسك بكتابنا تقوي الحصون ويتراجع العادون ... والأساس تربية صالحة علي نحو ما فعل سلفنا الأولون فما معالم هذه التربية ؟

التربية عمل يستغرق العمر كله ، منذ بدء التكليف الي انتهاء الأجل ، ومن الخطأ تصور انها بناء يتطلب بضعة شهور أو بضعة سنين يعقبه استجمام واسترخاء ، المؤمن مع نفسه كقائد السيارة يظل يقظا طول الطريق ، والا فقد يهلك في ساعة اغفاء ...

وقد ألفنا في حياتنا أن نجعل طلب العلم مراحل ، وان نمنح الدارسين اجازات أو شهادات تدل علي ما نالوا منه ، فهل التربية كذلك ؟ لا . ان الأقساط التي ننالها من الاكتمال النفسي لم توضع لها سلالم واضحة ، ولم ترصد لها علامات ، يبدو لأن علم ذلك عند الله وحده اولا ، ولأن التربية ليست مناهج موقوتة ، يقاس تحصيلنا فيها حينا بعد حين ، ان المرء يجاهد نفسه بالغدو والآصال ، سائرا الي ربه بثبات ، والسائر الي الله يترضاه : بفعل ما أمر وترك ما نهي ، ولا يزال سائرا يطوي مراحل حياته ، حتي اذا قارب النهاية قيل فيه ، " الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون" . لقد طابت نفسه كما يطيب الثمر علي أغصانه ، ثم يجئ الحصاد في ابانه ، فاذا نفس تهيأت لسماع النداء الأخير " يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الي ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي " .

وتتناول التربية الانسان من عدة نواح : الأولي شعوره بنفسه – أعني عبادة الذات – فالشعور الايجابي بالذات يكاد يكون حجر الزاوية عند بعض الناس ، وهو أساس الفخر والكبر وحب الظهور وطلب الثناء والانسياق مع مطالب الرياء ، وهو مصدر الحقد والحسد والعداوات الممتدة ظاهرة وباطنة ، والواقع ان الانسان عندما يدور حول نفسه وحدها ، لا يصلح لشئ ولا يصلح به شئ ، وبعد ذلك سر اتفاق العلماء علي أن اعمال القلوب أهم من اعمال الجوارح ، وان معاصي القلوب أخطر من أنواع العوج الآخري .

ولن ينجو المرء من هذا الداء الا اذا وثق روابطه بالله وصفي نيته معه ، وحرص علي ابتغاء وجهه وانتظار ما عنده ..... وجعل هضم النفس ، واحتقار العاجلة أغلب علي سيرته وأوضح في شتي معاملاته .

ويختلف حب الناس للشهوات اختلافا واسعا ، نعم ، أنهم متفقون علي اجابة غرائزهم البدنية ، بيد اني لاحظت أن هناك من يحب الطعام ، وهناك من يحب النساء ، وهناك ما يحب المال ، وهناك من يحب الشهرة ، وقد يضحي بشهوة في سبيل آخري آثر لديه .

والتربيةالصحية تستبقي من الشهوات القدر الذي تقوم به الحياة ، وتراقب بحذر ما فوق ذلك . وفي تراثنا الديني معالم مشرقة لهذا المنهاج الذي ينشئ النفوس إنشاء علي مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ..

وقد تأملت في التراث الانساني الخصب ، الجامع بين الدين والفلسفة والآدب ، فلم أجد أغني ولا أدق ولا أرق من الثروة التربوية التي تركها محمد عليه الصلاة والسلام .

وهناك عدة آلاف من الأحاديث المقبولة ، وهناك معالم سيرة انسانية طهور ، تسبح في فلك لا يقف ابدا . وقد يهوي النجم ولكن محمدا يستحيل أن يهوي ..

وطريق الاكتمال والتسامي هو التزام هذه الأسوة والاستمداد الدائم منها ، ويتطلب ذلك نوعا من المعاناة والمجاهدة ، يعجز عنها الا من عصم الله .

ان التربية ليست وضع البذور في أرض علي رجاء مطر يجئ أو لا يجئ ، ولا جهد وراء ذلك ، كلا ، انها بذر وسقي وتعهد ومطاردة للحشرات والأوبئة ، ومتابعة صاحية حتي اوان النضج .

والمربون هم البيت - وأساسه المرأة - والمدرسة والمسجد ، والشارع والدولة بما ملكته في العصور الأخيرة من قدرات اقتصادية وثقافية واعلامية . والحق أن الصحابة والتابعين كانوا نتاج تربية نبوية مباشرة جعلت منهم الجيل الذي حول الخضارة الانسانية من حال الي حال .

وأشعر اليوم بشئ من الآسي واليأس لاننا لا نجمع من عناصر التربية ما يجعل امتنا تثبت في مغارسها ، وتجدي علي رسالتها ... ذاك في وقت تعربد فيه شياطين الانس والجن ، ويكاد الهوي ينفرد بزمام العالم أجمع . لا بأس أن أقسم الأخلاق الي قسمين : اخلاق ربانية واخلاق انسانية ، ولأرجئ الحديث الآن في القسم الثاني مع أن كليهما ضروري لصدق الايمان واكتماله .. المؤمن الناضج الاعتقاد يتجاوب مع قول الرجل الصالح " وافوض أمري الي الله ان الله بصير بالعباد " فمن نضب فؤاده من التفويض الي الله فقد الأخلاق الربانية ...

والمؤمن الناضج الاعتقاد يقتنع بقول الله له " وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير فهو علي كل شئ قدير " فمن حسب أن احدا يكشف ضره

بعيدا عن الله ، او أن ذا سلطان يسوق اليه الخير بعيدا عن الله ، فقد تجرد من الأخلاق الربانية.

والمؤمن يكتفي بنظر الله اليه ، ورقابته عليه ، ويعي بعمق قول الله : " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا . فمن رمق وجها آخر ، وأمل الخير عنده فقد عري عمله عن الاخلاص وفقد الأخلاق الربانية ....

وعلماء القلوب شحنوا كتبهم بهذه المعاني ، لأنهم موقنون بان معاصي القلوب أخطر من معاصي الجوارح ، فهذه المعاصي القلبية سرطان يأتي علي الايمان من القواعد ....

وقد لاحظت – وأستغفر ربي وأستعيذ به – ان عددا من قادة الثقافة ورجال السياسة ، مبتلون بهذا السرطان ، وأن عبادة الذات والتقوقع في مطامعها يسيطران عليهم . ويشاركهم في هذا البلاء اذناب يطنون حول مآربهم ومجالسهم طنين الذباب ....

امراض القلوب لا الخلاف الفقهي اخطر شئ علي الدنيا والدين معا .

ما الخلاف الفقهي ؟ انه كالخلاف بين المحافظين والعمال في انجلترا او كالخلاف بين الجمهوريين والديمقراطيين في امريكا . هؤلاء الناس متفقون علي الأصول الرئيسية والأهداف العامة ، وربما تفاوتت أنظارهم في الترتيبات الداخلية لنظام البيت .

أما في أمتنا فقد رأيت الرعاع يبنون العلالي علي هذا الخلاف ، ويخرجون منه بنتائج مدمرة . لنفرض أن رجلا يتبع أبا حنيفة ولا يتبع ابن حزم ، أو العكس ، ما علاقة هذا بالقرب من الله أو البعد عنه ؟ وما صلة هذا بالفسوق أو التقوي ؟ هذا خلاف يحكم فيه بالخطأ أو بالصواب ، أنه خلاف عقلي في نطاق محدد ومن السفه ربطه بحقيقة الدين أو وحده الأمة ، فلو تصورت أن مخالفا لابن حزم – أيام سلطانه – وشي به الي الصليبيين كي يبطشوا به ، فانا اعد الواشي مرتدا ، او هو من سلالة ابي لؤلؤة أو ابن ملجم .

ومثله في الزيغ من يفضلون أن تحكم افغانستان الشيوعية ولا يحكمها ابو حنيفة ، ويوجد متدينون في عصرنا ينحدرون الي هذا الدرك من الغباء او الحقد ، وقد أنوا الله ورسوله بهذا الفكر الوضيع ، وذاك سر حملتي عليهم وضيقي بهم .. ان الخلاف الفقهي في ديننا – اذا استوفي شرائطه العلمية والخلقية لا يسمي معصية ابدا ، بل كل مجتهد مأجور باجماع الأمة ....

والذين يتذرعون بالخلاف في الفروع واللمز ، والتمزيق والتفريق جديرون بالتأديب ... ولا أصدق أن رجلا مؤمنا استجمع الأخلاق الربانية يسف الي هذا المستوي ..

ونتحدث الآن عن الأخلاق الانسانية كالصدق والأمانة والوفاء والشرف ... الخ وانما سميتها كذلك لأنها عامة تشمل المسلمين وغيرهم . واضداد هذه الأخلاق هي أركان النفاق ، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : " اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من خصال النفاق حتي يدعها : اذا اؤتمن خان واذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر " .

والغريب ان الفجور في الخصومة ، والعبث بالعقود والعهود والاستهانة بالكلمة ، والاضاعة للأمانات ، كلها تكاد تكون عادات مألوفة بين الكثيرين ، وان المسلمين لا يلتزمون بما ورثوا من دين في ميادين الأخلاق عامة الا من عصم الله ...

علي حين نجد أتباع ملل آخري يتحررون في معاملاتهم ومسالكهم مكارم الأخلاق ، ويترفعون عن الفوضي والاسفاف والتسبب . وقد قلت : انني نظرت في تراث العظماء ، فلم أجد أغني ولا أزكي ولا أوسع ولا أرفع مما تركه محمد في ميدان الأخلاق فما الذي باعد الأمة عن تراثها وزحزحها عن قواعدها ... ؟ ان الخلق العظيم لأمة ما نتاج جملة من العناصر المتماسكة المتكاملة ، تلتقي فيها العقائد والعبادات والأحوال الاقتصادية والسياسية....

ثم أن الخلق ليس قراءة ورقة ولا سماع درس ، انه صناعة شاقة ، وتجارب متكررة ، وتكلف مستمر ينتهي بأن يكون ملكة قائمة وصبغة ثابتة . وقد لاحظت أن جهودا شيطانية بذلت ، ليكون الايمان عقيما ، بالتأويل والتعطيل المتعمدين ...

فقد يكون الايمان عندالبعض كلمة فقط لا عمل معها ، وقد يكون العمل نافلة يزداد بها وقد يستغني عنها .. وصور العبادات تؤلف أسفارا في ضبطها ، أما جوهرها الباطن فقلما يكترث به . وقد نشأت عن ذلك مفارقات رجحت كفة المجتمعات الكافرة ، وهوت بكفة المجتمعات المؤمنة ، فقول الزور في ديننا يعادل الشرك " اجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور ، وقول الزور كبيرة في قضية صغيرة بين رجلين أو امرأتين، ولكننا في العالم العربي مثلا نصنع انتخابات مزورة يشترك فيها (عشرات الالوف من الناس ، وتتواصي الأطراف المعنية بقبول نتائجها ، وتسكت الجماهير الغفيرة مغضية أو عاجزة) . وهذا الوضع لا تعرفه أمم علمانية تحتقر الزور ، وتحترم الحق ، وتنظر الي الكلمة المنطوقة علي أنها رباط خطير ، وكأنها هي التي نفذت قول القرآن الكريم : " انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بايات الله ، أولئك هم الكاذبون . "

اننا فقراء الي الأخلاق الربانية والأخلاق الانسانية علي السواء .....

وقد أدرت ظهري لمتدينين قصروا ثيابهم وتمنوا الموت الزؤام لمن يخالفهم في ان

لحم الجزور ينقض الوضوء ، وان شهادة المرأة لا تقبل في الحدود والقصاص ..... الخ

من الأخلاق الربانية والانسانية بنيت الأمة الاسلامية والبناء باق ما بقيت هذه الأخلاق ، فاذا وهن تصدع الصرح كله ، وتعرض للضياع .

ان العقائد هي التي تصنع المثل العليا ، والمثل العليا هي التي تهيمن علي السلوك وتوجهه ، والعقائد طور للنفس الانسانية ينقلها من الميوعة الي الثبات والصلابة ، والأخلاق هي القوالب التي تصاغ فيها حركات المرء وسكناته ، ويستحيل ان يتوفر الاحترام لأمة لم تستقر عقائدها وأخلاقها .... وقد شرحنا في كتبنا الآخري الاعجاز المحمدي في تكوين العرب واخراجهم من الظلمات الي النور ، ان هذه السياسة التربوية التي رسمها امير الأنبياء لاتزال وحدها القديرة علي اعادة البناء المتصدع وانقاذ أمة كبيرة من مهاوي الفناء والهزيمة .....